(١)

الولايات المتحدة
تاريخ من العنصرية والتوسع والإبادة والهيمنة

obeikan.com

اعتاد العالم كله تلقّي النصائح والتوجيهات من أمريكا في القضايا التي تتعلق بالديمقراطية وحقوق الانسان باعتبارها الدولة الرائدة.. في العالم في هذين المجالين. بل إن كثيراً من الأمريكيين يحلو لهم وصف بلادهم بأنها «مهد الحريات والحقوق الإنسانية»، متناسين أن الولايات المتحدة هذه، وكما عرفتها الدنيا، كانت مجرّد ولايات متفرقة تابعة للاستعمار البريطاني، نشأت كمهجر ومنفىً وملاذ لشرائح مختلفة ومتباينة من البشر. وتوالت موجات الهجرة وتنوعت من المضطهدين دينياً وسياسياً، الذين سمعوا عن أرض مفتوحة بلا نهاية وبلا حدود، قادمين من القارة الأوروبية، ومن القارة السمراء ومن آسيا ايضاً. ولم يمضِ غير قرن ونصف حتى ظهر على مساحة القارة الأمريكية مجتمع «ألأمة» فريد وخليط متنافر؛ تاريخه مبني على مآسٍ إنسانية يشيب لها الولدان، بدءاً من الاستيلاء على أراضي الهنود الحمر بالقوة وتدميرهم بدلاً من التعايش السلمي معهم؛ ثم التحول الى أفريقيا للبحث عن عبيد يصلحون لهم أراضيهم ويمهدون سبل حياتهم الجديدة فيها.

ويلاحظ أن هذا السلوك الأميركي، المتمثل في الاستيلاء على أراضي الغير ونهب ثرواته، قد تكرر أيضاً في تاريخ الحركة الصهيونية، حين فكر مؤسسها «ثيودور هرتزل» في مشروع دولة يهودية في فلسطين تكون وطناً قومياً لليهود.

إن أحلام البدايات التي قامت على فكرة «فوقية الرجل الأبيض» وعلى العنصرية التي هي الأساس الذي شكّل الدولة الأمريكية، كانت من الأدلة الأولى التي ساقتها الكاتبة الأكاديمية الأمريكية «اليزابيت مارتينيه» على أن مجد أمريكا الاقتصادي الذي يتباهي به حكامها اليوم ما تم إلا بسرقة الموارد الاقتصادية للدول الأخرى واستعباد العمالة اللازمة لذلك، ثم، وهذا هو الأكثر عنصرية وعدائية، حين تبرّر أمريكا جرائمها بما تسميه "دونية" ضحاياها[1]. وعلى سبيل المثال أيضاً، فإن الدولة الأمريكية، وهي قاعدة الأمبراطورية الأمريكية، قامت على مبدأ طارئ لم تعرفه تجارب نشأة الدول من قبل. ففي حين كان مبدأ الأمم يقوم على استمرار الجغرافيا وتدفق التاريخ، فإن مبدأ التجربة الأمريكية الأول كان يقوم على التصميم على الهروب إلى جغرافيا جديدة والانقطاع عن التاريخ. وعليه، فإن أي مفاوض أو محاورعربي مع طرف أمريكي لا يستطيع التأثير عليه أو إقناعه بحجج من نوع «عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير

---

(١) جريدة الخليج الإماراتية، العدد ٤٦٨٤، ٢٧ فبراير/ شباط ٢٠٠٣، بالأصل دراسة للناشطة في حقوق الإنسان، اليزابيث مارتينيه، استاذة الدراسات العرقية في جامعة كاليفورنيا.

بالقوة"، أو "حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم».

إن المتتبع لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية لن يندهش بكل تأكيد من العربدة الأمريكية الحالية، ومن أسلوب القرصنه السياسية والعسكرية والاقتصادية الذي تنتهجه تجاه مقدرات ومصائر الشعوب باسم محاربة «الإرهاب»! ففي الأزمات تسقط دائماً أوراق التوت وتظهر الأمور جلية على حقيقتها دون زيف، ويبدأ التاريخ يظهر من جديد ليشكل مرآة تعكس حقيقة أمة يؤكدها الحاضر وتعززها الممارسات. فمنذ عقود طويلة والعالم ينظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أنها "دولة الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات"، ولكن الوجه الحقيقي للولايات المتحدة بدأ يظهر في الأزمات ليذكّر العالم بتاريخ «الأمة» الأمريكية وتاريخ الدولة الأمريكية، التي انشئت أساساً على جثث السكان الأصليين للقارة وبأن هذه الدولة بنت اقتصادها على حساب اقتصادات الشعوب المستضعفة، كما هو حاصل مع بترول العراق، الذي كان على رأس أهداف الغزو الإمبريالي الأمريكي لبلاد الرافدين عام ٢٠٠٣. أما ثاني تلك الأهداف فكان تدمير القوة والقدرات العسكرية العراقية خدمة للكيان الصهيوني، ليكون هذا الكيان بمأمن ويبقى القوة المتفوقة في منطقة الشرق الأوسط، والذراع الطولى للتحالف الأمريكي الصهيوني– الغربي.

ويجدر الانتباه إلى أن ما يعطي العدو الصهيوني هذه الدرجة الهائلة من القبول في الولايات المتحدة، وعلى مدى تعاقب إداراتها، هو أن هذا الكيان يظهر أمام الناس هناك باعتباره مشروعاً ناجحاً حقق هدفه، بصرف النظر عن طبيعة الوسائل التي استخدمها لإقامة هذا المشروع عرفاً وأخلاقاً وقانوناً. بهذا المنطق يمكن فهم موقف الامبريالية الأمريكية من قضايا الشرعية الدولية.. وقراراتها، وبهذه العقلية وبهذا المنهج إختزلت الولايات المتحدة سلطة المنظمة الدولية في مجلس الأمن وحده، ثم إختزلت سلطة مجلس الأمن في أعضائه الخمسة الدائمين، لتختزل بالتالي سلطة الخمسة الدائمين هؤلاء في نيابتها وحدها عن الجميع بواقع القوة «المفرطة».

وفي تجربة الأمبراطورية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، وفي مصر بالتحديد، تكررت عروض البيع والشراء، أكثر من مرة، كما يقول الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل:[١]

---

(١) محمد حسنين هيكل، الامبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، دار الشروق ٢٠٠٣، ص ٣٠ وما يليها.

• في العصر الملكي في مصر (سنة ١٩٥٠) رغبت الولايات المتحدة الأمريكية في حل قضية اللاجئين الفلسطينيين، فعرضت على مصر مشروعاً لشراء سيناء وتوطين اللاجئين الفلسطينيين فيها، (وكان ذلك العرض على هامش مشروع «كلاب» وهو اسم السياسي الأمريكي الذي كلّف به) ورفض الملك فاروق هذا العرض.

• وفي تجربة العصر الجمهوري سنة ١٩٥٥، يضيف هيكل، حاولت الإمبراطورية الأمريكية شراء صلح بين مصر والكيان الصهيوني بواسطة بعثه قادها «روبرت أندرسون»، وزير المالية في عهد الرئيس «أيزنهاور». وكانت الصفقه تقوم على خطة سرية عرفت باسم الخطة «الفا»، وبمقتضاها عرض «أندرسون» تعهّد أمريكا بالمساعدة في بناء السد العالي مقابل قبول مصر بصلح منفرد مع الكيان الإسرائيلي يكون تمهيداً لصلح عربي شامل بين العرب وهذا الكيان، وكان ذلك في إطار خطة سرية أوسع هي الخطة «اوميغا»[١]، ورفض «جمال عبدالناصر» يومها هذا العرض.

وفي محاضرة للمفكر الأمريكي الشهير «نعوم تشومسكي»، أكد الأخير أن موضوع الامبريالية الأمريكية المعاصرة شائك ومعقد للغاية؛ ويرى أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي عمل مؤسسوها منذ إنشائها على أن تولد كإمبراطورية، أو كما كان الرئيس الأمريكي جورج واشنطن يسميه: «الطفل الإمبراطوري».[٢]

وتلتقي أليزابيت مارتينيه في دراستها مع ما طرحه هيكل وتشومسكي، وتصل إلى حقيقة لا تسر الأمريكيين ولا أصدقاءهم، خلاصتها أن أمريكا أول أمة في العالم تولد عنصرية، وهي كذلك أول أمة تولد رأسمالية. وهذه ليست مصادفة وإنما هي تلازم ضروري تفرضه الأحداث التاريخية. وتنتهي إلى القول إنها أمة قدّر الله لها أخذ أراضي الغير والسيطرة على شعوبها ونهب ثرواتهم من أجل تحقيق الحكم الفيدرالي.[٣]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢) نعوم تشومسكي، مفكر وفيلسوف وبروفيسور لغات وناشط سياسي أمريكي (يهودي) ومنذ حرب فيتنام، ارتبط اسمه دائماً بمعارضة السياسات الداخلية والخارجية للولايات المتحدة، ومناهض للمشروع الصهيوني، محاضرة في جامعة بوسطن في مارس/آذار ٢٠٠٩.

(٣) جريدة الخليج الإماراتية، العدد ٨٦٨٤، ٢٧ فبراير/شباط ٢٠٠٣، والأصل دراسة للناشطة في حقوق الإنسان اليزابيت مارتينيه، أستاذة الدراسات العرقية في جامعة كاليفورنيا.